مسائل في اللغة والأدب بين الغرب والعرب

د. فاطمة محمد أمين العمري

أستاذ مساعد في مركز اللغات بالجامعة الأردنية

omari.fatema@yahoo.com

ود. بسمة أحمد صدقي الدجاني

أستاذ مشارك في مركز اللغات بالجامعة الأردنية

bdajani@hotmail.com

الملخص:

يهدف هذا البحث إلى دراسة أشكال التواصل والحوار بين الحضارات من خلال الأدب بألوانه وفنونه المختلفة، والكشف عن أنماطه الموجودة منذ القدم حيث كان الأدب دائماً من أعمدة الحضارة. وسيتطرق البحث كذلك إلى الربط بين تألق الأدب وتألق الحضارة والحوار بين الحضارات، بالإضافة إلى استخلاص العبر من المراحل التاريخية المختلفة لهذا الموضوع الذي يعكس حالة التعايش بين الحضارات والأمم بهدف تقديم رؤية متجددة أو استراتيجية مقترحة مستقبلية لدور الآداب في حوار الحضارات. وبطبيعة الحال تعريف المفاهيم الأساسية للموضوع كمدخل للخوض فيه.

نعيش اليوم عصر عولمة قَرُبَت فيه المسافات وانسابت فيه المعلومات سمينها وغثها بين المجتمعات، وسلطت الأضواء على معرفة الآخر معرفة ظاهرية حيث يستطيع الفرد منا الوصول إلى أحدث المقالات الأدبية عن طريق الشبكة العنكبوتية (الإنترنت)، ومشاهدة البرامج الفضائية التي تشده من أفلام روائية ومسلسلات اجتماعية محلية ومترجمة عن آداب الآخرين شرقاً وغرباً، فيتعرف من خلالها إلى أنماط الحياة المتنوعة هنا وهناك في القارات المتباعدة، ويتأثر بما يراه ويتفاعل معه إيجاباً وسلباً. لذلك فالأدب اليوم – ونحن نعيش عصر الصورة - وسيلة مؤثرة تتميز بالسهولة وقوة الجذب أكثر من غيرها في التواصل الحضاري والتقريب بين فئات وأبناء عصر العولمة.

وقد كان الأدب دوماً مرآة لحياة الشعوب، وسجلاً دقيقاً لتاريخها ساعدنا على تصور الحضارات السابقة وتجسيدها. فكما قال هيبوليت تين أحد أكبر ممثلي الثقافة الفرنسية في القرن التاسع عشر، ومن مشاهير النقاد الذين أثروا في تاريخ النقد الأدبي أبلغ تأثير:" القصيدة العظيمة والرواية الجيدة واعترافات يكتبها رجل عبقري أكثر إفادة وأوفَى دلالة من حشد من المؤرخين، وإني لأعطي مئة مجلد من الوثائق الدبلوماسية في مقابل مذكرات شيلليني ورسائل القديس بولس وحديث المائدة للوثر أو ملهيات اريستوفان...والأدب يشبه هذه الأجهزة الشديدة الحساسية التي يستطيع بها الأطباء أن يهتدوا إلى التغيرات الدقيقة الغامضة التي تطرأ على

الجسم ويقيسوها. فالوثائق التي تبين العواطف الإنسانية وتطورها هي التي يتكون منها أدب الأمم والذي بدراسته يمكن معرفة عقليتها والاهتداء إلى القوانين النفسية التي تنبعث منها الحوادث" [1].

والأدب كما عَرَّفَه العلامة ابن خلدون في مُقدمته هو"العلم الذي يجمع كلام العرب، وما عساه تحصل به الكلمة من شعر عالي الطبقة وسجع متساو في الإجادة، ومسائل من اللغة والنحو، وحفظ أخبار العرب (وغيرهم من الأمم بطبيعة الحال) وأشعارهم وأنسابهم وأيامهم ودولهم، والأخذ من كل علم بطرف".[2] وهذا تعريف أثبتت القرون الستة المُنصرمة على وفاة صاحبه أنه ينطبق على لغات عالمنا وآدابه في يومنا هذا.

أما الآداب في اللسان اللغوي فتُطلق على العلوم والمعارف عموماً وعلى ما يليق بالشيء فيقال: "آداب الدرس وآداب القاضي". وعلم الأدب هو علم يُحترز به عن الخلل في كلام العرب لفظاً وكتابة، وهو كذلك الظُرف والتهذيب.

وللغة العربية وآدابها بما تشمله من مضمون رسالة الحضارة العربية الإسلامية، وبما تمثله من إعجاز وقدسية، دور محوري ومهم في السعي إلى تحقيق التواصل الثقافي مع الآخر، وتوضيح الرُّؤى وتبيين وجهات النظر المتباعدة في عصرنا للتصدي لمشكلات الواقع، ومواجهة الصراعات الدولية لأجل الوصول إلى تناغم حضاري وحوار بنّاء بين الحضارات. فالله عزّ وجّل أورد في قرآنه الحكيم ما

يوجب احترام المسلم لأبناء الحضارات والديانات الأخرى، والتفاعل معهم من أجل الوصول إلى الحق. بل ويدعونا الخالق في محكم تنزيله إلى ضرورة التعارف مع أبناء الشعوب الأخرى، والوصول معهم إلى نقاط اللقاء. قال تعالى:" يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير"(الحجرات آية 13).

كما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حثَّ العباد على السعي من أجل العلم والترحال في سبيله " ولو كان في الصين " لنستفيد ونُفيد بأن نتعرف إلى لغة الآخر فنتمثلها ونصدر عنها بحيث نتمكن من ثقافة الآخر فنحاوره ونأخذ منه ونضيف إليه.

وهذا يُحَمِّل دور أهل القلم والفكر أعباءً إضافية تتمثل بزيادة التعريف بثقافتنا العربية الإسلامية، ونشر فروع آدابنا المختلفة بهدف إيصال رسالة حضارتنا الإسلامية بلساننا العربي، وترجمة مُحتواها إلى لُغات الشعوب من حولنا القريب منها والبعيد؛ ليزداد فهم الآخر لنا ولتخبو حدة الهجمة الراهنة علينا من أولئك المُرَوجين إلى صدام الحضارات أمثال هنتنغتون وفوكوياما وغيرهم. ولنجسر الهوة الآخذة بالاتساع بين ثقافتنا ومفردات حياتنا ومعطياتها.

وقد كان ارتقاء أي حضارة وهيمنتها عبر التاريخ يؤدي إلى تألق آدابها وفنونها، كما أن انفتاحها عندما تكون في قوة يؤدي إلى تبادل المعرفة وتواصل الآداب.

فعندما انتصر الاسكندر المقدوني في العصر القديم أنشأ مكتبة الاسكندرية التي كان يُؤتَى لها بالمؤلفات والكتب من الشرق والغرب والشمال والجنوب، وحَوَت بين جنباتها في عصرها الذهبي مئات الالآف من لفائف وكتب الزمان القديم[3]. فمما لاشك فيه أن الغالب يرفع مكانته ومكانة شعبه وكل منجزاتهم المادية والمعنوية. ولنا أن نستذكر أيام كان العرب أمة غالبة كيف عمَّت آدابهم وفنونهم وتناقلتها الأمم فكانت نواة عصور نهضتها ومنارة دروبها وما وصلت إليه من تقدم.

ولقد ساهمت الآداب في تواصل الحضارات في المشرق، ومع قيام الفتوحات الإسلامية كان الحرص دائماً على المحافظة على الإرث الأدبي الحضاري والتواصل معه وتبنيه. وتميزت الفتوحات الإسلامية عبر العصور بأنها لم تُدمر حضارات البلدان والمدن التي تم فتحها على يد الفاتحين المسلمين، في حين أن الغزاة من خارج الحضارة الإسلامية ساهموا إلى حد كبير في تدمير منارات الحضارة الإسلامية بشكل أو بآخر. والغزوات التي جاءت من خارج العالم الإسلامي قامت بمحاولات طمس وتدمير للإرث الحضاري الأدبي والعلمي. فقصة تدمير مدينة بغداد على يد "هولاكو خان" عام 656 هـ / 1258م مثال من أمثلة متعددة تشهد على محاولات التدمير تلك حتى أن ماء نهري دجلة والفرات صُبغ باللون الأسود لكثرة ما أُلقي فيه من الكتب.

كما نتج عن توالي الحملات الصليبية (الفرنجة) على البلاد الإسلامية آثار سلبية أربكت سيرورة الأدب العربي بل أثرت في الحالة الثقافية بشكل عام تأثيراً امتد قروناً. ففي ذلك العدوان الفرنجي الغابر الذي اعتبر أول هزيمة كبرَى للمسلمين في تاريخهم، والذي شهد خطراً استيطانياً اقتطع أجزاء من قلب المنطقة العربية، بثَّ الناس همومهم وأحزانهم في أنماط الأدب الشعبي الذي اختاروه وعاء لأمانيهم وأحلامهم، وإطاراً لأفكارهم ورغباتهم. وقدم الأدب الشعبي من خلال الشعر والزجل ومن خلال السيرة والحكاية والنادرة الإجابات الفنية التعويضية عما طرحه الناس من تساؤلات محيرة مضنية. وحكايات "ألف ليلة وليلة" تحمل أصداء هذه التأثيرات التي تركتها الحروب الصليبية في العالم العربي في الجانب الثقافي. فالحكايات التي تدور حول الحروب الصليبية في "ألف ليلة وليلة" ثلاث حكايات تستغرق أكثر من مئتي ليلة ".[4]

على أننا لا نحمل المد الخارجي وحده وزر تدمير المكتبات العربية أو بعضها، إذ تعرضت المكتبة العربية لهجمات عديدة من داخل الدولة العربية الإسلامية قادها بعض الأمراء والقادة ممن استهدفوا بعض أعلام الفكر فدمروا إنتاجهم وأبادوه بالحرق وغيره، الأمر الذي أفقد المكتبة العربية جزءاً مهماً من مقتنياتها ذات الأهمية البالغة في حقول معرفية مهمة ولاسيما حقل الفلسفة. ولنا في إحراق كتب

ابن رشد خير مثال على ذلك ولعل هذا وإن لم يكن بفعل الخطر الخارجي إلا أنه كان بفعل السياسة بشكل أو بآخر.

أما وقد ذكرنا الإسكندرية وقد كانت مؤئلاً لمكتبة عظيمة في القرن الرابع قبل الميلاد فحري بنا أن نستذكر بغداد ومكتبة بيت حكمتها التي أسسها هارون الرشيد [5] وازدهرت لتصبح رمزاً للنهضة الثقافية العربية الإسلامية في عهد المأمون [6]. فقد سجلت صفحات التاريخ للرشيد حرصه على الحفاظ على مكتبات المدن التي وصل عماله إليها مثل عمورية وأنقرة، وتعيينه جماعة تجيد اللغتين اليونانية والآرامية للنظر في محتوياتها واختيار النادر منها ليودعه بيت الحكمة.[7] بل إن المأمون أغدق أموالاً طائلة على المترجمين الذين نقلوا علوم الأمم الأخرى، ولا يخفى ما لهذا من أثر بالغ في التشجيع على الترجمة الأمر الذي يغذي المكتبة العربية ويرفدها لاسيما إذا قدرنا عدد المؤلفات التي اتكأت على الكتب المترجمة، وحجم الإضافة التي قدمتها تلك المترجمات للمتون العربية.

ودار حوار الحضارات تحت سقف مكتبة بيت الحكمة حيث إن غالبية الذين تولوا أمر إدارتها وأشرفوا على حركة الترجمة فيها كانوا علماء من مختلف الثقافات والأديان: من السريان والمجوس واليهود والنصارى والعرب والمسلمين وغيرهم. وكانوا جميعاً يحظون بمنزلة رفيعة عند الخلفاء وفي مجتمعاتهم، ويؤخذ بآرائهم ويمارسون شعائرهم بحرية تامة ويناظرون المسلمين في الأمور الدينية. [8] فتيسر

للعرب في وقت قصير (بعد عهد المأمون – القرن العاشر الميلادي) أن يستوعبوا تراثاً فكرياً أنتجته ثلاث حضارات راقية: يونانية وفارسية وهندية، وذلك بعد أن اقتبسوه وتمثلوه وأنشأوا من خلاصته وثمار جهودهم نهضة علمية هائلة [9].

وفي أوج الحضارة الإسلامية تداخل الاهتمام بالأدب المكتوب بالاهتمام بالعلوم فمن مزايا العصر الذهبي (من القرن التاسع الميلادي إلى القرن الثالث عشر الميلادي) غلبة الثقافة الموسوعية على العلماء؛ إذ اهتم العالم بالعلوم والفيزياء والكيمياء وبلغة الكتابة والآداب المختلفة.

وسجل التاريخ البشري تألق الحضارة الإسلامية العربية في نهايات العهد الأموي في الأندلس في عهد عبد الرحمن الناصر وابنه الحكم المستنصر[10] حيث تعايش فيها – بسلام - المسلم والمسيحي واليهودي وأبدعوا معا في مجالات متنوعة. ويقال إن مكتبة قرطبة في الحقبة تلك جمعت أربعمئة ألف كتاب، وقد نُقلت على عدة مراحل إلى أوروبا، وساهمت في التأسيس لنهاية العصور المُظلمة وبدايات عصر النهضة والتفتح من القرن الرابع عشر والخامس عشر والسادس عشر الميلادي والتي مَهَّدَت لقيام الثورة الصناعية نهاية القرن الثامن عشر في أوروبا.

وفي القصيدة العربية الأندلسية نموذج أدبي للتفاعل الحضاري وما ينتج فنياً عن تمازج الشعوب، فهي فرع من شجرة الشعر العربي ذي الأهمية التاريخية والاجتماعية والفنية، فهذا الشعر كما قال أجدادنا هو ديوان العرب. والشاعر

المبدع هنا هو الإنسان الأندلسي وليد السلالات العديدة التي توالت على سكن تلك المناطق من شبه جزيرة إيبيريا من إيبيريين وفينيقيين وإغريق وقرطاجنيين ورومان وفاندال وقوط حتى وصل العرب ومعهم البربر. وقد أدى امتزاج أهالي الأندلس وسكانها إلى تفتح ملامح شخصية أندلسية تجمع بين ملامح عربية وأعجمية، محافظة على مقومات الأصالة ومستجيبة إلى دواعي التجديد. الأمر الذي أنتج نماذج أدبية احتفظت بكثير من السابق، وقدمت إضافات جديدة أكسبتها طابعاً خاصاً. فكان النموذج الأندلسي وليد مرحلة تاريخ استقرار العرب المسلمين في الأندلس وحكمهم لها الذي يحتل مكانة خاصة في التاريخ العربي الإسلامي، ويحتفظ له الكثيرون حتى اليوم بذكريات عزيزة وحنين قوي لما يمثله من نموذج فريد لحوار الحضارات وتعايشها بانسجام. والأمر يصدق على أصحاب تلك المنطقة والجانب الغربي بصفة عامة لما كان لذلك التاريخ من تأثير مباشر على الثقافة الغربية. فقد قامت الأندلس خلال ذلك العهد الإسلامي والفترات التالية له بدور الجسر الواصل بين كل ما ينتجه العالم العربي من ألوان الثقافة والعلوم، وبين الجانب الأوروبي المتعطش للحضارة.

أما عن التفاعل الحضاري في العصر العباسي فقد كان إنتاجه الأدبي متأثراً بنتائج الانفتاح على الثقافة الفارسية والاندماج مع العوالم الجديدة من جهة الشرق. فعُرف الشعر العباسي بما تميز به من مجون وعصبية عرقية وطبقية وترف. وعُرف

أدباء العصر العباسي بإلمامهم من كل شيء بطرف. وهناك قول "للحسن بن سهل" أن برنامج الأديب أن يعرف الضرب على العود ولعب الشطرنج، ويعرف شيئاً من الطب والهندسة والفروسية، كما يجب أن يعرف الشعر والنسب وأيام الناس، ويتعلم أحاديث السمر ومحاضرات المجالس [11].

والجاحظ [12] أديب العربية الأكبر في العصر العباسي، هو الرجل الذي تمثل ثقافات عصره، ومثَّلها خير تمثيل في كتبه الكثيرة المتنوعة، وكغيره من متكلمي عصره كان مطلعاً على ما تُرجم إلى العربية من الثقافات الفارسية والهندية، ومن آثار اليونان في العلم والفلسفة، ومنها كتاب الحيوان لأرسطو، مما شجعه على تأليف كتاب الحيوان [13] الذي هو الأول من نوعه في اللغة العربية [14].

وقد تميز كتاب الحيوان للجاحظ بإبداعه الأدبي والفني، ولمساته خفيفة الظل، وفكاهاته، ومجونه المقبول، وأسلوبه المتنوع. فكما لخَّص الأستاذ عبد السلام هارون قيمة الكتاب عند تحقيقه له قائلاً:" قد يوهم اسمه أنه قد خصص بالحيوان وما يمت إليه بسبب. ولكن الحق أن الكتاب معلمة واسعة وصورة ظاهرة لثقافة العصر العباسي المتشعبة الأطراف" قد حَوَى الكتاب طائفة من المعارف الطبيعية، والمسائل الفلسفية. كما تحدث في سياسة الأقوام والأفراد، وفي المسائل الجغرافية وخصائص كثير من البلدان، وتأثير البيئة في الحيوان والإنسان والشجر، وتناول الحديث في الأجناس البشرية وتباينها مع عرض لبعض قضايا التاريخ. كما أفاض

القول في آي الكتاب الحكيم وحديث الرسول صلى الله عليه وسلم، وبعض مسائل الفقه والدين. وتحدث فيه الجاحظ عن العرب والأعراب وأحوالهم وعاداتهم. والكتاب كذلك ديوان جمع مختارات من نوادر الشعر العربي، والأمثال [15].

لقد قامت الحضارة العربية الإسلامية في القسم الشرقي من العالم الإسلامي على اللغتين العربية والفارسية حيث ظهر إبداع أهل الأدب والعلم والثقافة في كتاباتهم باللغتين للعمل ذاته أحياناً من أمثال ابن سينا والغزالي والرازي وغيرهم. وحافظت العربية على مكانتها كلغة الثقافة في ذلك العصر مع ظهور النزعة الفارسية، والاتجاه إلى إحياء اللغة الفارسية. وقد كان للنزعة الشعوبية أثرها في حفز كثير من الفرس الإيرانيين على تأليف ملاحم الشاهنامة التي نظموها متغنين فيها بأمجاد آبائهم، ومدفوعين بتسجيل مآثرهم، كما كان لها أثر كبير أيضاً في دفع عجلة حركة الترجمة التي نقلت أمهات الكتب الإيرانية وروائع الأدب الفارسي إلى العربية رغبة منهم في أن يقفوا جنباً إلى جنب مع العرب على الساحة الثقافية في ذلك الوقت، ثم أن يضعوا بين يدي العرب شيئاً متميزاً من إنتاجهم الأدبي [16]. ولنا فيما قام به عبد الله بن المقفع من ترجمة كليلة ودمنة والتاج وتنسر نامه كأعمال كاملة نقلها عن الفارسية وما جاء من اقتباسات وتضمينات مترجمة عن ذلك الأدب نقلها في أدبه الكبير والصغير. وما عبد الله بن المقفع إلا واحد من مجموعة من الأدباء والعلماء الذين ساهموا في حركة الترجمة تلك. ولا يخفى ما قدمته تلك

الترجمات من إضافات جديدة إلى الأدب العربي في الشكل والمضمون فزاد به ثراءً وغنىً.

ويرد اسم "ناصر خسرو" كواحد من أدباء مرحلة التفاعل الحضاري العربي الفارسي الذين تركوا آثاراً غنية أدبية وفكرية ثقافية منها ديوان شعر منظوم وكتب دينية وفلسفية. وهو صاحب كتاب "سفر نامه"[17] في أدب الرحلات والمذكرات، والذي قيل فيه إن الهدف منه لم يكن مجرد تسجيل رحلة سياحية عادية، وإنما قام فيه "ناصر خسرو" بدور سفير يحاول القيام بدور إيجابي في عودة العلاقات المتوترة بين القرامطة والفاطميين لمواجهة قيام الدولة السلجوقية بعد هزيمتها للدولة البويهية [18].

قدم " ناصر خسرو" تعريفاً حضارياً لنفسه ولأسرته في ديوانه على أنه خلاصة صافية للأحرار (الإيرانيين):" أنا فخر أسرتي وجنسي بينما يفخر الآخرون بأسرهم وأجناسهم". وتحدث عن ثقافته ودراسته لعلوم الدين واللغة وعلم النجوم والحساب والهندسة والعلوم الطبيعية والطب والموسيقى والمنطق وفلسفة أرسطو. كما تحدث عن دراسته للتاريخ والأديان المعروفة في زمنه؛ الأوستا والزند والبازند، ومعرفته للغات كثيرة غير الفارسية؛ منها العربية والإغريقية والتركية والهندية والعبرية. ويبدو من إنتاجه الأدبي تأثره بالبحتري وجرير وحسان بن

ثابت وأبي العلاء المعري من الشعراء العرب، وبالعنصري والدقيقي ومنجيك وقطران من الشعراء الفرس، كما يبدو من إنتاجه الفلسفي تأثره بابن سينا [19].

ويعتبر "جلال الدين الرومي" [20] من رواد الأدباء والمفكرين الذين تناولوا قضية حوار الحضارات في كتابه الأدبي الشعري "المثنوي" الذي حظي بالعديد من الشروح والتعليقات في مختلف اللغات. كما ترك أثراً بعيداً في النظرة الواسعة إلى العالم لتناوله العلاقة بين الإنسان والله سبحانه وتعالى من ناحية، وبين الإنسان والإنسان من ناحية أخرى، ولمناقشته مذهب وحدة الوجود وتصويره في شعره مختلف مراحل تطور الإنسان في رحلته نحو المصير [21].

كما كان لقصائد "حافظ الشيرازي" [22]- أكبر شعراء الفارسية- تأثيرها القوي في التقريب بين المسلمين والبراهمة في الهند على ما بينهم من صراع حيث هيمن شعره على العراق وفارس باسطاً سلطانه ما بين بغداد والبنغال[23]. وبرزت في شعره الروح الإنسانية-العرفانية التي تجاوزت المظهر العنصري القومي الضيق الموجود عند بعض شعراء الشعوبية الفارسية، بل يظهر بوضوح تقديره للغة العربية وآدابها التي نهل منها وتأثر بها، ودراسته للشعر العربي الجاهلي والأموي والعباسي وحفظه القرآن الكريم مع التجويد بقراءات متعددة.

ثم امتد سلطان حافظ من الهند إلى إنجلترا مع سيطرة الاستعمار البريطاني على الهند في القرن الثامن عشر. وتُرجمت غزلياته إلى الإنجليزية شعراً ونثراً وتبعتها

ترجمات إلى الألمانية. وقد قام الشاعر الألماني "غوته" بإهدائه ديوانه "الغربي الشرقي" تعبيراً عن شدة تأثره به. وعبَّر " نيتشه" عن إعجابه بالشيرازي بتوجيه خطابه له قائلاً: " أنت ذاتك: لاشيء وكل شيء، في غاية الفقر أنت، أغنى من الوجود، وتحترق في نار كمالك فتخرج من النار في كل مرة وأنت أكمل " [24].

وبعد أن وقعت غالبية الدول العربية والإسلامية تحت نير الاستعمار في القرن التاسع عشر ثم بدأت تحوز على استقلالها بعد الحرب العالمية الثانية كان لهذا تأثيره المباشر على ازدياد إقبال أبناء الجيل التالي للاستعمار على دراسة الآداب الإنجليزية والفرنسية والألمانية والإيطالية والتخصص فيها. فكما قال د. قاسم عبده هناك نتائج وآثار فكرية وثقافية تنتج عن الحروب في المجتمعات تتخذ لنفسها شكل تيار اجتماعي/ثقافي مستمر ومتصاعد، ويتبلور من إبداعات أبناء هذا المجتمع في فنونه وآدابه [25].

والأدب كواسطة للتواصل الحضاري يتميز بداية باعترافه بوجود الاختلاف والتنوع بين الآداب ومظاهر الحياة الحضارية بين أُمَّة وأُخرَى، وبالنظر إلى هذا الاختلاف على أنه مظهر طبيعي لخصوصية كل أُمَّة. فيُبنَى الحوار على أُسس دعم الشخصية القومية وجذبها للتفاعل مع البناء الأدبي العالمي، وأبداً لا يتطلب محو العناصر الذاتية للأُمم. فمن مبادئ العلاقة الراسخة بين العلم والثقافة واللغة أن الإبداع لا يكون إلا بتوطين العلم، وتوطينه لا يكون إلا باللغة القومية.

إلا أن هذا الاتجاه يُناقض ما وصل إليه هنتنغتون صاحب " صدام الحضارات" الذي يرى أن جوهر الخلافات البشرية ثقافي مما يُنمي الخلاف والصراع ومشاعر التفوق والدونية بين الأُمم. كما أنه يختلف مع ما ذهب إليه غوته عندما عكس هذه المسألة بشكل تام مع إثارته لقضية الأدب العالمي، وتخيله أن الآداب المختلفة ستلتقي كلها يوما ما في أدب واحد كبير تقوم فيه الشعوب بدور الروافد التي تصب انتاجها في نهر الأدب العالمي [26].

وهذا ما لا يجب أن يصير إليه حال الآداب التي تعبر عن ثقافات مجتمعاتها وهوياتها بلغاتها القومية. فاللغة العربية مثلاً بعلومها من نحو وصرف وإملاء وبلاغة وبآدابها المتنوعة من شعر وقصة ورسائل وخطب وأمثال تمثل عنصراً أساسياً من عناصر الثقافة العربية. و"المتخصصون بدراسة اللغات وآدابها هم من أقرب الناس إلى ثقافة شعوبهم وهوياتها، وهم الأكثر تمثلاً لروح الأمة وانتماءً لمبادئها وقيمها. كما أن محاولات استخدام لغة بعيدة عن روح الأمة وثقافتها هو شكل من أشكال التغريب والانسلاخ عن الهوية الثقافية للأمة. لذلك كانت اللغة ولاتزال هدفاً يبدأ المحتلون عادة بتقويضه مثلما حدث في الجزائر عندما دخلها الفرنسيون يوم الخامس من تموز عام 1830 فأغلقوا مدارس تعليم اللغة العربية وأنشأوا جامعتهم الفرنسية، وأصدروا في 8 مارس 1938 أمراً ينص على اعتبار اللغة العربية الفصحى لغة أجنبية في الجزائر" [27] .

وكذلك فعل اليابانيون عندما استعمروا كوريا في النصف الأول من القرن العشرين حين منعوا تداول اللغة الكورية طوال ستين سنة إلى أن استقلت البلاد فصدر أول مرسوم في أول عدد من الجريدة الرسمية يحظر تداول اللغة اليابانية، وبدأ الكهول والشيوخ يُعلِّمون الأطفال والشباب لغتهم القومية.[28]

ولنا أن نقف أمام محاولة تطبيق لغة عالمية مشتركة تحت فرضية إلغاء التمييز اللغوي بين أبناء الحضارات والقوميات المختلفة حين ابتدع الغرب لغة الأسبرانتو التي تم طرحها في بيان براغ عام 1886 كمشروع لغة إتصال دولية وظيفتها التقريب بين الناس عبر الحواجز اللغوية والثقافية. وكان هدف التحرير الإنساني وتحقيق الديمقراطية ضمن المحاور الأساسية التي جاءت في هذا البيان بهذا الشكل:" تنتج كل لغة للمتكلمين بها حرية وأسراً ففي حين أنها تسهل لهم الاتصال فيما بينهم لا تمكنهم من الاتصال بالآخرين.. أما الاسبرانتو فتسهل لكل إنسان المشاركة كفرد من الجماعة البشرية مع جذور راسخة في حضارته المحلية وهويته اللغوية دون أن تحده بها". وقد قام صانع هذه اللغة "لودفيغ اليعزر زامنهوف" بترجمة بعض الفنون الأدبية إلى الإسبرنتو وكتابة أدب أولي بها كما طبع كتاباً لنحوها في وارسو يوليو 1887. وأصبح لها جمهورها المتحدث بها في روسيا وأوروبا الشرقية ثم أوروبا الغربية والأمريكيتين والصين واليابان. إلا أن التجربة سرعان ما أثبتت عدم صلاحية هذه المحاولة وفشلت فكرة أحادية البعد

الثقافي اللغوي، وكما قال د. صلاح فضل في المؤتمر العربي الأوروبي للحوار بين الثقافات:" إن مفهوم الإبداع يرتكز على الخلق والابتكار في العلوم والآداب والفنون ويعتمد على الفكر المختلف وكسر الإطار التقليدي، ولذلك لا ينطبق على موازاة النماذج الحضارية المخالفة ".[29]

وكذلك جاء في كلمة د. جابر عصفور:" يجب أن ينطلق حوار الحضارات من منطلق التنوع البشري الخلاق أولاً، وبحثاً عن أفق متوازن للتفاعل بين العالمي والوطني ثانياً، وقائماً على الاعتراف بالآخر وحقه في الاختلاف والتميز بخصوصياته ثالثاً، وداعماً لآفاق الحرية الفكرية والإبداعية رابعاً ".

وقد جاءنا في شريعتنا الإسلامية ما يؤكد على أهمية الاختلاف ووحدة التنوع في قوله سبحانه وتعالى: " وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم في ما آتاكم فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون". (المائدة آية 48).

ويوصلنا هذا إلى التمييز بين "الثقافة العالمية" و"ثقافة العولمة" التي نعيش تجربتها في زماننا الراهن. فالثقافة العالمية هي ثمرة طيبة للتعرف إلى ثقافات كثيرة وتمثل أفضل ما لديها، وقد حملها أفراد مثقفون نهلوا من معين ثقافات

متنوعة. وقد حفظ لنا تاريخ الحضارات ذكر مثقفين "عالميين" قدموا أمثلة على تفاعل الثقافات والحضارات من خلال الرحلة كابن بطوطة أو قراءة الأخبار، والرمز الأدبي لهؤلاء في حضارتنا العربية الإسلامية هو "سندباد". أما ثقافة العولمة فهي ثمرة تعريف من خلال التثقيف يعتمد الفرض ويستهدف التنميط وفق "برمجة" معينة تضعها قوى اقتصادية وفق رؤيتها ومصلحتها، وتحمل معها خطر الحد من التنوع الثري بين الأفراد والثقافات والتقاليد [30].

لقد انعكست أصداء هذه القضية (الالتقاء بين الحضارات بل الصدام بينها) على الأدب الروائي العربي الحديث؛ إذ تمثل غير روائي ذلك فنتجت مجموعة من الروايات العربية التي تصدر عن محاولات تمثل ثقافة الآخر والصدور عنها نحو خلق نماذج بشرية تجمع بين حضارتين وأمثلة هذه الروايات كثيرة منها رواية "عصفور من الشرق" لتوفيق الحكيم التي طبعت لأول مرة عام 1938، ورواية "قنديل أم هاشم" ليحيى حقي التي طبعت لأول مرة عام 1944، ورواية "موسم الهجرة إلى الشمال" للطيب صالح التي نشرت لأول مرة عام 1966 وغيرها من الأعمال.

ونموذج آخر تناول – حديثاً- تأثير ثقافة العولمة نعيشه مع رواية "شرف" لصنع الله إبراهيم التي كتبها في منتصف التسعينات وجسدت ظاهرة العولمة بعد أن برزت بوضوح وجلاء في حياة كوكبنا الأرضي. وجاءت الرواية عملاً أدبياً

جميلاً يساعد على صنع الاستجابة لتحدي العولمة وطرح إجابات صحيحة عن التساؤلات المثيرة التي تناولتها من خلال الجمع بين الأدب والفكر.

رواية أخرى مؤهلة لأن تكون من وسائل الحوار والاقناع والعبور الثقافي نحو الآخر هي رواية " باب الشمس" [31] للكاتب اللبناني "إلياس خوري" التي ترجمت إلى الفرنسية والعبرية، وتم تحويلها إلى فيلم سينمائي. وفيها يمزج مؤلفها بقدرة فنية ظاهرة بين البعد التاريخي والبعد الفني ليحكي التاريخ النضالي الفلسطيني منذ ثلاثينات القرن الماضي إلى التسعينات منه مستعيناً بعرض لتجارب حضارية كالتجربة الصينية، وشارحاً لبعض المواقف الغربية الأوروبية تجاه القضية الفلسطينية من خلال تفاعل الشخصيات في الرواية. ويرى بعض الباحثين أن "باب الشمس" مثلت بوابة الوعي التاريخي بمرحلة نكبة شعب وسقوطه في تداعياتها حين حاول مؤلفها أن يجعل منها تاريخاً نقدياً لمرحلة معاصرة نحياها، ونتطلع من خلالها نحو بناء واقع جديد يقوم على التمعن في الأخطاء، ومحاسبة الذات، وقراءة التاريخ العربي بروح نقدية وموضوعية.[32] ونجحت الرواية في إبراز دور العمل الأدبي الفني في الحوار والتفاهم بهدف الإقناع من أجل التواصل بين الحضارات.

والنماذج السابقة من الأعمال الروائية العربية حلقة في سلسلة أدبية طويلة ناقشت هذا الموضوع، وساهمت فيه بطرف؛ إذ دارت أحداث كثير من الروايات

العربية على مسارح انتهكتها ثقافة الآخر، وجاء كثير من شخوصها ممن سددوا وقاربوا في هذا بينما جاء غيرهم ممن أخفقوا في تمثل حضارة غيرهم فسقطوا دونها ووقفوا على أعتابها مشدوهين. والحق أن هذه الفكرة في الآداب العربية وإن كانت وليدة الظرف المجتمعي العام، إلا أنها ليست خاصة بنا فقد اشترك الأدب العالمي الصادر عن كثير من الشعوب – سواء أكانت من تلك المروجة لهذا المد أم كانت من تلك الدول التي تعاني من سريانه وتفشيه – في هذا الموضوع بشكل عام. فالأدب العالمي مليء بكثير من الأعمال الأدبية التي تتمثل هذا الموضوع وتصدر عنه في محاولة للولوج إلى دواخله علَّها تساهم في حَلِّ رموزه، وتبديد مخاوفها منه بطرف. وقد حُفرت رواية "الجذور" لأليكس هيلي في الذاكرة الإبداعية العالمية بعد ظهورها عام 1977 في بريطانيا مجسدة لتاريخ التواصل الحضاري الإفريقي الأمريكي وموضحة في فصولها الأولى تأثر بعض المفكرين الأمريكيين الأفارقة بالروحانية الإسلامية وتأثير الثقافة الإسلامية على الثقافة التقليدية في ذاكرة الوطن المفقود.

ونحن إذ نشهد عولمة تجتاح الأفق ومعارك حضارية فما أحوجنا إلى استذكار تلك النماذج المشرقة التي أنارت سماوات مدن وحضارات عدة، فسوقت للتسامح، وروجت للألفة، ودعت إلى التعايش السلمي، وقبول الآخر أياً كان. فالثقافة أياً كان شكلها وعلى أية صورة أتت متجسدة بكتاب تاريخي أو فسيفساء

أدبية أو قصائد متباينة أو كتب دينية وفلسفية أو أعمال روائية أو إنتاجات سينمائية، فإنها تتجه دائماً نحو اكتمال النظر في إيجاد مجتمع أفضل.

ويأتي هذا البحث في محاولة لإضافة شيء في حلقة الآداب وحوار الحضارات.

الهوامش

[1] علي أدهم، تاريخ الأدب الإنجليزي لتين، موسوعة تراث الإنسانية، دار الكتاب العربي، القاهرة، مج 5، ص 506.
[2] ابن خلدون، المقدمة ص 554.
[3] من الجدير بالذكر أن ما يدعيه بعض المؤرخين أمثال بتلر* من أن مكتبة الإسكندرية قد دمرت من جانب المسلمين مغالط للحقيقة، بل إنه عار من الصحة تماماً حيث يذكر د. إسماعيل سراج الدين مدير المكتبة الحالي أن التدمير حدث قبل الفتح الإسلامي بمئات السنين نتيجة كوارث طبيعية.
* Alfred J. Butler, Arab Conquest of Egypt, Darf Publications, December 1988 .
[4] قاسم عبده قاسم، ماهية الحروب الصليبية، عالم المعرفة، الكويت، 1990، ص 225.
[5] الخليفة هارون الرشيد (170-193هـ).
[6] المأمون (ت 218هـ).
[7] صالح الحمارنة، بيت الحكمة البغدادي وحوار الحضارات، مجلة النشرة، المعهد الملكي للدراسات الدينية، العدد 31، 2004، ص 9.
[8] المصدر نفسه ص 10.
[9] كمال اليازجي، معالم الفكر العربي في العصر الوسيط، ص 68، 69.
[10] الحكم المستنصر (امتد حكمه من 350هـ - 366هـ).
[11] طيبة صالح الشذر، ألفاظ الحياة الثقافية في مؤلفات أبي حيان التوحيدي، القاهرة، 1989، ص 18.
[12] أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (وفاته 255هـ).
[13] ألف الجاحظ كتاب الحيوان قبل سنة 233هـ وأهداه إلى وزير المعتصم والواثق، الكاتب الشاعر الأديب محمد بن عبد الملك الزيات. عن د. أمجد الطرابلسي، نظرة تاريخية في حركة التأليف عند العرب في اللغة والأدب، مكتبة دار الفتح، دمشق، 1976، ص 132.
[14] المصدر نفسه، ص 137.
[15] المصدر نفسه، ص 140.
[16] محمد غنيمي هلال، الحياة العاطفية بين العذرية والصوفية، دار نهضة مصر، القاهرة، 1976، ص 174.
[17] سجل ناصر خسرو (394-453هـ) في كتابه " سفر نامه " رحلاته في أسفاره التي امتدت سبع سنوات (437-444هـ) انظر د. يحيى الخشاب في دراسته لهذا الكتاب في موسوعة تراث الإنسانية، ج1، الشركة العربية للطباعة والنشر، ص643.
[18] المصدر نفسه، ص 646.
[19] المصدر نفسه، ص 642.
[20] جلال الدين الرومي (604 – 672 هـ).
[21] انظر أعلام ومفكرون لمحات عن مشاهير العلماء والمفكرين في عصور الإسلام الذهبية، تحرير حكيم محمد سعيد، الأكاديمية الإسلامية للعلوم، عمان، 2000، ص 62.
[22] حافظ الشيرازي (توفي 792 هـ).

[23] حافظ الشيرازي، ديوان العشق، نقله إلى العربية صلاح الصاوي، مركز النشر الثقافي "رجاء" مقدمة الدكتور محمد حسين مشايخ فريدني، ص 15. عن مقال للشاعر والناقد محمد علي شمس الدين، جريد الحياة، السبت 1994 /11/19.
[24] المصدر نفسه، ص 1.
[25] المصدر نفسه، ص 220.
[26] مصطفى البكور، قصة الحماسة بين رستم دستان وسيف ذي يزن، الوفاق صحيفة إيران الدولية، العدد 2499، 2007/1/13، عن الانترنت.
[27] الثقافة العربية والعولمة من خلال أنموذج اللغة، د. عبد السلام المسدي، مستقبل الثقافة العربية في القرن الحادي والعشرين، ص 327.
[28] صلاح جرار، ص 68.
[29] من مداخلة د. صلاح فضل في المؤتمر العربي الأوروبي للحوار بين الثقافات (باريس 15، 16 يوليو 2002).
[30] أحمد صدقي الدجاني، عرب ومسلمون وعولمة، ص 50.
[31]إلياس خوري، باب الشمس، دار الآداب، ط2، بيروت، 1998.
[32] زهير محمود عبيدات، وعي التاريخ في رواية "باب الشمس" لإلياس خوري، المجلة الأردنية في اللغة العربية وآدابها، جامعة مؤتة، الأردن، عمان، المجلد 2 العدد 4 أكتوبر 2006، ص 112.

المصادر

1- ابن خلدون، المقدمة، دار إحياء التراث العربي، بيروت، شركة علاء الدين للطباعة والنشر.

2- إحسان عباس، تاريخ الأدب الأندلسي: عصر سيادة قرطبة، دار الثقافة، بيروت، 1985.

3- أحمد صدقي الدجاني، عرب ومسلمون وعولمة، دار المستقبل العربي، القاهرة، 2000.

4- أمجد الطرابلسي، نظرة تاريخية في حركة التأليف عند العرب في اللغة والأدب، مكتبة دار الفتح، دمشق، 1976.

5- جلال أمين، كتب لها تاريخ، كتاب دار الهلال، العدد 626، القاهرة، فبراير 2003.

6- حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، ج3، في العصر العباسي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط12، 1987.

7- زهير محمود عبيدات، وعي التاريخ في رواية "باب الشمس" لإلياس خوري، المجلة الأردنية في اللغة العربية وآدابها، جامعة مؤتة، الأردن، المجلد 2 العدد 4 أكتوبر 2006.

8- صالح الحمارنة، بيت الحكمة البغدادي وحوار الحضارات، مجلة النشرة عن المعهد الملكي للدراسات الدينية، العدد 31، عمان، 2004.

9- صلاح جرار، الجدار الأخير نظرات في الثقافة العربية، منتدى الفكر العربي، عمان- الأردن، 2006.

10- طيبة صالح الشذر، ألفاظ الحياة الثقافية في مؤلفات أبي حيان التوحيدي، القاهرة، 1989.

11- علي أدهم، فصول في الأدب والنقد والتاريخ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1979.

12- علي أدهم، تاريخ الأدب الإنجليزي لتين، موسوعة تراث الإنسانية، دار الكتاب العربي، القاهرة.

13- عمر فروخ، تجديد التاريخ في تعليله وتدوينه، دار الباحث، بيروت، 1980.

14- قاسم عبده قاسم، ماهية الحروب الصليبية، عالم المعرفة، الكويت، 1990.

15- كمال اليازجي، معالم الفكر العربي في العصر الوسيط، دار العلم للملايين، بيروت، ط4، 1966.

16- محمد غنيمي هلال، الحياة العاطفية بين العذرية والصوفية، دار نهضة مصر، القاهرة، 1976.

17- محمود محمد شاكر، رسالة في الطريق إلى ثقافتنا، كتاب الهلال، العدد 489، دار الهلال، القاهرة، ط3، 1991.